النفي المعنويّ في القرآن الكريم

د. فلاح إبراهيم نصيف الفهداويّ

قطر/جامعة حمد بن خليفة/ كلية الدراسات الإسلامية

drfalahibrahim@gmail.com

الملخص:

سلك النحويون طُرُقًا متعددة في توجيه النصوص وتأويلها، ومن هذه الطرق حمل بعض الألفاظ التي ظاهرها الإثبات على النفي الكامن فيها. وكان من فوائد الحمل على النفي المعنويّ الوارد في بعض ألفاظ النصوص أن سَلمت كثير من القواعد النحوية من التأويل بالطرق المتعسّفة التي لجأ إليها بعض النحويين، بل أحياناً يكون النفي المعنويّ أبلغ من النفي الصريح كما صرّح بذلك بعض النحويين، وربّما كانت الأفعال أعنى بذلك من الحروف وغيرها. كما كان لِحَمْل بعض الأدوات على بعض في الدلالة على النفي المعنوي لمساته البيانية؛ إذ العدول عن استعمال ما هو أصل في بابه إلى آخر لابدّ أن يترتب عليه أثرٌ بلاغيٌّ يُلمح من سياق النص.

وقد آثرت أن يكون ميدان الدراسة في القرآن الكريم ؛ لما لذلك من أهمية في إثراء الدراسات القرآنية؛ وليكون الموضوع أكثر تحديدًا بما يتناسب مع حجم هذا البحث. كما آثرت أن أقسّم البحث على مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد في تعريف (النفي المعنوي)، أما المبحث الأول فكان عنوانه(النفي المعنوي في الأفعال)، وأما الثاني فكان(النفي المعنوي في الأدوات).وليس هذا على وجه الحصر، وإنما هو لتسليط الضوء على هذه الظاهرة في القرآن الكريم. والله وليّ التوفيق.

المقدمة:

من فوائد الحمل على النفي المعنويّ الوارد في بعض ألفاظ النصوص أن سَلِمت كثير من القواعد النحوية من التأويل بالطرق المتعسفة التي لجأ إليها بعض النحويين، فكان الرجوع والالتفات إلى المعنى في توجيه بعض النصوص طريقًا سليمًا ومنطقيًا في توجيه الإعراب، وإنما سُمي الإعراب إعراباً؛ لأنه يُبين عن المعاني؛ لذلك لا يمكن فصل اللفظ عن المعنى سواء كان في حالة الإيجاب أم في حالة السّلب، بل أحياناً يكون النفي المعنوي أبلغ من النفي الصريح كما صرّح بذلك بعض النحويين وربّما

كانت الأفعال أعنى بذلك من الحروف وغيرها، وليس بالضرورة أن يترتب على النفي المعنوي قضية نحوية فقد تكون فائدته بيانية وبلاغية وحسب ولاسيّما في حمل بعض الأدوات على بعض في الدلالة على النفي المعنوي؛ إذ العدول عن استعمال ما هو أصل في بابه إلى آخر لابدّ أن يترتب عليه أثرٌ بلاغيٌّ يُلمح من سياق النص.

ولم تأخذ قضية الرجوع إلى المعنى العام للسياق لدى النحويين واللغويين المساحة الكافية عند تعاملهم مع النصوص؛ وذلك لتركيزهم على الصناعة النحوية، كما كان اعتمادهم على المعنى لتوجيه النصّ في حالة الإيجاب أكثر منه في حالة السّلب بما لا يمكن المقارنة بينهما وليس هذا بمستغرب، إذ النفي فرع عن الإثبات في الكلام؛ لذا كان رجوعهم إلى المعنى لتقصّي النفي الكامن فيه أشبه ما يكون بشذرات هنا وهناك.

وربّما كان تنغيم الصوت هو المؤشرَ والدالّ على النفي وغيره من المعاني فتأتي ألفاظ الجملةِ واحدةً إلّا أنَّ دلالتها تختلف حسب تنغيم الصوت إذ يكون هو الأصل في تحديد المعنى المستفاد من الجملة أو العبارة وقد أشار ابن جني إلى هذه الظاهرة في كتابه الخصائص بقوله: " وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمَّلته؛ وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلًا، فتزيد في قوة اللفظ بـ(الله) هذه الكلمة، وتتمكَن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي: رجلًا فاضلًا أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك"[١].

وقد اعتاد النحويون أن يُنزلوا النفي المعنويّ منزلة النفي اللفظي فيأخذ أحكامه سواء أكانت في النحو أم في اللغة. ومن المصطلحات التي استعملت في التعبير عن تضمين الكلام للنفي المعنويّ: (الإشراب، والحمل، والتقدير، والتضمين، وما أجري مجرى).

وقد آثرت أن يكون ميدان الدراسة في القرآن الكريم لما لذلك من أهمية في إثراء الدراسات القرآنية والنحوية؛ وليكون الموضوع أكثر تحديدًا بما يتناسب مع حجم هذا البحث، كما آثرت أن أقسّم البحث على مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد، أما المبحث الأول؛ فكان عنوانه: (النفي المعنوي في الأفعال)، وأما الثاني؛ فكان: (النفي المعنوي في الأدوات). وليس هذا على وجه الحصر، وإنما هو لتسليط الضوء على هذه الظاهرة في القرآن الكريم. والله وليّ التوفيق.

النفي لغةً واصطلاحًا:

ورد (النفي) في القرآن الكريم بمعنى الإبعاد والطرد، جاء ذلك في سورة المائدة في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾** {المائدة:٣٣}، أي: الإخراج والإبعاد من الأرض[٢].

ولم تبتعد المعاجم عن هذا المعنى في تحديد دلالة (النفي)، إذ جاء فيها أنَّ النفي بمعنى التنحية والإخراج، قال الزمخشري:" ن ف ي: نفيته من المكان: نحيّته عنه فانتفى. ونُفي فلانٌ من البلد: أُخرج وسُيّر**﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنْ الْأَرْضِ﴾** {المائدة:٣٣}، وانتفى شَعره: تساقط. وانتفى الشجر من الوادي: ذهب. وانتفى من ولده، وانتفى من الأمر. وهذه نفاية المتاع ونفيته، وهو من النِّفايات والنفي... ومن المجاز: فلان من نِفايات القوم"[٣].

وجاء في المعجم الوسيط: "نفى الشيء نفياً نحَّاهُ وأبعدَهُ يقال نفى الحاكم فلانا أخرجه من بلده وطرده ونفيت الحصى عن الطريق، ونفى السيل الغثاء، ويقال نَفَت السحابة ماءها أسالته وصبته، ونفاه جحده وتبرّأ منه"[٤].

أما النفيّ اصطلاحًا؛ فقد عرّفه الشريف الجرجاني (ت:٨١٦هـ) بقوله:" النفي: هو ما لا ينجزم بـ(لا)، وهو عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل"[٥].

وكان الزركشي (ت٧٩٤ هـ) قد تكلم عن النفي فقال: " هو شطر الكلام كله؛ لأن الكلام إما إثبات أو نفي"[٦]. وفرّق بينه وبين (الجَحْد)فذهب إلى أن النافي إن كان صادقاً فيما قاله سُمي كلامه نفيًا وإن كان يعلم كَذِبَ ما نفاه كان جَحْدًا، فالنفي أعمّ؛ لأن كل جَحْدٍ نفيٌ من غير عكس، فيجوز أن يُسمى الجحد نفيًا؛ لأن النفي أعم ولا يجوز أن يسمى النفي جَحْدًا، فمن النفي: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم﴾** {الأحزاب:٤٠}، ومن الجحد نفي فرعون وقومه آيات موسى عليه السلام، قال الله تعالى:**﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾** {النمل:١} أي: وهم يعلمون أنها من عند الله[٧].

بهذه التعريفات كان العلماء القدماء يعرفون (النفي) من دون التفريق بين النفي الصريح والنفي المعنوي، وربّما كانوا يعنون بهذه التعريفات النفي الصريح بأدواته المعروفة دون النفي المعنويّ إذ لم يكن حاضرًا في أذهانهم وإنما كانوا يلجؤون إليه عند اضطرارهم إلى ذلك، يدلّ على ذلك عنايتهم وتبويبهم أدوات النفي الصريحة في كتبهم والاستفاضة في الحديث عن أحكامها وأحوالها بخلاف ما كان يدلّ على النفي ضمنًا ومعنًى.

وعرّفه الدكتور مهدي المخزومي في العصر الحديث تعريفًا شاملًا فأشار إلى أنه أسلوب لغوي وله طرائق متعددة، كما راعى فيه الحالة الذهنية للمخاطب وذلك بقوله: "النّفي أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول، وهو أسلوب نقض وإنكار يستخدم لدفع ما يتردّد في ذهن المخاطَب، فينبغي إرسال النفي مطابقًا لما يلاحظه المتكلم من أحاسيسَ ساورت ذهن المخاطَب خطأ، ممّا اقتضاه أن يسعى لإزالة ذلك بأسلوب نفي بإحدى طرائقه المتنوعة الاستعمال"(٨).

ومن المصطلحات التي وردت في بعض كتب النحاة مرادفة لمصطلح (النفي المعنوي) هو (النفي الضمني)، وقد عرّفه أحمد سليمان ياقوت بقوله: "هو ما يُفهم من الجملة دون أن ينصّ عليه حرف من حروف النفي"(٩).

المبحث الأول/ النفي المعنويّ في الأفعال:

(كفر)، كما حملوا الفعل (كفر) على نظيره الفعل (جحد) في قوله تعالى: ﴿**أَلَآ إِنَّ عَادا كَفَرُواْ رَبَّهُم**﴾ {هود:٦٠}؛ لأن الفعل (كفر) الأصل فيه على ما يقوله النحويون أن يتعدى بالباء. ونقيض هذين الفعلين النظيرين هو الفعل (آمَنَ) وهو يتعدى بـ(الباء) أيضًا نحو قوله تعالى: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَينَا**﴾ {البقرة:١٣٥}، قال أبو حيّان:" وأصل (جحد) أن يتعدى بنفسه، لكنه أجري مجرى (كفر) فعدي بالباء، كما عدي (كفر) بنفسه في قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ عَادا كَفَرُواْ رَبَّهُم**﴾ {هود:٦٠} إجراء له مجرى (جحد). وقيل: (كفر) كـ(شكر) يتعدى تارة بنفسه وتارة بحرف جر"(١٠).

ونرى أن يُحمل الأمر على الكثرة والقلة على وفق ما جاء به القرآن الكريم وتكلّمت به العرب فنقول: إنّ الكثير في استعمال الفعل (جحد) يكون متعديًا بنفسه، والقليل متعدياً بالباء ولا حاجة إلى التأويل وحمل بعض الأفعال على بعض، إذ الأصل في اللغة الاستعمال والسماع.

المبحث الثاني/ النفي المعنويّ في الأدوات:

اعتاد النحويون الحديثَ عن أدوات النفي الصريحة في الدلالة على معنى النفي نحو (ما، لا، لن، لم، إنْ، ليس...)، وقد دُرست هذه الأدوات في كتب النحو سواء التي تناولت موضوعات النحو العامة أم التي اختصّت بدراسة الأدوات. أما الأدوات التي جاءت متضمنة لمعنى النفي فلم تأخذ حظها الكافي من الدراسة، وإنما جاء الحديث عنها ضمنًا في كتب تفسير القرآن الكريم وكتب النحو والبلاغة، ونحن في هذا المبحث سنحاول أن نضرب بعض الأمثلة على الأدوات التي خرجت عن أبوابها المعروفة لتُفيد

معنى النفي ضمنًا لنستكمل الحديث عن هذا الموضوع، وهذا يدخل في باب تعاقب الأدوات على المعاني وتعددها لتُضيف مسحة بلاغية وتغييرًا في الأسلوب، فمن هذه الأدوات:

أولًا / (غَيْر) :

يذهب أكثر النحويين إلى أن كلمة (غير) تكون صفة للنكرة أو فيما كان بمنزلة النكرة، أو استثناء[١١]، وذهب الراغب الأصفهاني إلى أنها تكون للنّفي المجرّد من غير إثبات معنى به نحو: مررت برجل غير قائم. أي: لا قائم، قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّه﴾** **{القصص: ٥٠}**، **﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** {الزخرف: ١٨}[١٢].

وعندما يأتي المفسرون والنحويون إلى قوله تعالى في سورة الفاتحة:**﴿صِرٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾** {٧} ويحاولون الوقوف على المعنى الذي أفادته كلمة (لا) في قوله تعالى:**﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾**، يذهب أكثرهم إلى أنها جاءت لتوكيد النفي السابق لها في كلمة (غير)، بل من النحويين من جعلها اسمًا بمعنى(غير) لما فيها من معنى النفي[١٣]، ولما ورد من قراءة أبيّ رضي الله عنه (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)[١٤]. قال الفراء عند تفسير هذه الآية:" وأما قوله تعالى: (وَلَا الضَّالِّينَ) فإن معنى (غَيْرِ) معنى (لَا)؛ فلذلك ردّت عليها (وَلَا)"[١٥].

وقال المنتجب الهمذاني عند توجيهه هذه الآية:" قوله (ولا الضالين) عطف على (غير المغضوب عليهم)، ودخلت (لا) في (ولا الضالين) لما في (غير) من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين؛ ولذلك أجاز النحويون: أنا زيدٌ غيرُ ضاربٍ[١٦]، لأنه بمنزلة قولك: أنا زيدٌ لا ضاربٌ"[١٧].

وقال السمين الحلبي: "و(لا) في قوله: (ولا الضآلين) زائدة لتأكيد معنى النفي المفهوم من (غير) لئلا يتوهم عطف (الضالين) على (الذين أنعمت)، وقال الكوفيون: هي بمعنى (غير)، وهذا قريب من كونها زائدة، فإنه لو صرح بـ(غير) كانت للتأكيد أيضاً "[١٨].

ثانيًا / (لو) :

يذهب النحويون إلى أن (لو) حرف شرط غير جازم، أو أنه حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع الجواب لامتناع الشرط[١٩].

وقال الزركشي عند حديثه عن حرف الجواب (بلى) في قوله تعالى: ﴿ **لَو أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ ٱلمُتَّقِينَ أَو تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلعَذَابَ لَو أَنَّ لِي كَرَّة فَأَكُونَ مِنَ ٱلمُحسِنِينَ بَلَىٰ قَد جَآءَتكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبتَ بِهَا** ﴾ {الزمر:٥٧،٥٨}:"(بلى) إنما يجاب بها النفي هو الأصل وأما قوله تعالى:(بلى قد جاءتك آياتي) فإنه لم يتقدمها نفي لفظاً لكنه مقدّر فإن معنى (لو أن الله هداني) ما هداني الله فلذلك أجيب بـ(بلى) التي هي جواب النفي المعنوي ولذلك حققه بقوله:(قد جاءتك آياتي) وهي من أعظم الهدايات"[٢٠].

وجاء في معاني القرآن للنحاس: "وقوله جل وعز (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)(بلى) في كلام العرب إنما يقع بعد النفي وليس في الكلام نفي، ولكن فيه معناه؛ لأن معنى (لو أن الله هداني) ما هداني الله"[٢١].

وتشترك (لو) هذه مع همزة الاستفهام الداخلة على نفي بأنّ الجواب عنهما يكون بـ(بلى)على نحو ما جاء في قوله تعالى في سورة الملك:﴿**أَلَم يَأتِكُم نَذِير قَالُواْ بَلَىٰ قَد جَآءَنَا نَذِير**﴾ {٨،٩}، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**أَلَستُ بِرَبِّكُم قَالُواْ بَلَىٰ**﴾ {١٧٢}.

ونرى أن النفي المعنوي مُضمنٌ في (لو) فلا يكاد يفارقها عند دخولها على مثبت، وذلك واضح من تسمية النحاة لها أنها حرف امتناع لامتناع، فقولنا:(لو حضر زيد لأكرمته) إنما يعني: أن زيدًا لم يُكرم لأنه لم يحضر، وهذا التفسير يكاد ينطبق على جميع النصوص التي وردت فيها(لو) داخلة على مثبت، فهي وإن كانت شرطية إلا أنها متضمنة معنى النفي، ولذلك أجيب عنها في الآية بـ(بلى) التي هي مختصة بالجواب عن الخبر والاستفهام المنفيين، ولهذا يقول عنها ابن هشام:" ولهذا يصحّ في كل موضع استعملت فيه أن تعقبه بحرف الاستدراك داخلا على فعل الشرط منفيًا لفظًا أو معنى تقول (لو جاءني أكرمته لكنه لم يجئ)"[٢٢].

وفصّل أبو البقاء الكفوي في كتابه الكليات القول فيما تدخل عليه (لو) من النفي والإثبات وما يترتب على ذلك من قلب المعنى فقال: " وقاعدة (لو) أنها إذا دخلت على ثبوتين كانا منفيين، تقول: لو جاءني لأكرمته، فما جاءني ولا أكرمته، وعلى نفيين كانا ثبوتيين تقول: لو لم يَستدِنْ لم يُطالبْ، فقد استدان وطُولب، وعلى نفي وثبوت، كان النفي ثبوتا والثبوت نفيا تقول: لو لم يؤمن أريق دمه، فالتقدير أنه آمن ولم يرق دمه، والعكس لو آمن لم يقتل فأحفظها"[٢٣].

ويبعد أن تكون (لو) في قوله تعالى:﴿**لَو أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ ٱلمُتَّقِينَ**﴾ أفادت معنى التمني على نحو ما جاء بعدها في الآية نفسها ﴿**أَو تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلعَذَابَ لَو أَنَّ لِي كَرَّة فَأَكُونَ مِنَ ٱلمُحسِنِينَ**﴾ ، وفي قوله تعالى:﴿**فَلَو أَنَّ لَنَا كَرَّة فَنَكُونَ مِنَ ٱلمُؤمِنِينَ**﴾ {الشعراء:١٠٢}، وقوله تعالى:﴿**وَقَالَ ٱلَّذِين ٱتَّبَعُواْ لَو أَنَّ لَنَا كَرَّة فَنَتَبَرَّأَ مِنهُم كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا**﴾ {البقرة:١٦٧}[٢٤]؛ وذلك لأنّ التمني إنما يكون في الأشياء المستقبلية وليس فيما مضى وفات من الزمن، ولهذا يُجاب عن (لو) بـ(الفاء) حينما تكون للتمني، ويجاب عنها بـ(بلى) حينما تكون للنفي. قال العلّامة المنتجب الهمذاني في توجيه قوله تعالى:" قوله: ﴿**لو أن لي كرة فأكون من المحسنين**﴾ لك أن تنصب(فأكون) على جواب التمني الذي أداه معنى (لو)، كأنه قال: ليت لي كرة فأكون من المحسنين. وقوله: (بلى) جواب لقوله: (لو أن الله هداني) على المعنى؛ لأن معناه: ما هداني، لابد من هذا التقدير؛ لأن (بلى) لا يكون جوابًا لغير منفيّ"[٢٥].

ثالثًا/ (هل):

ذهب النحويون واللغويون إلى أن الأصل في استعمال (هل) أن تكون حرف استفهام لطلب التصديق[٢٦]، إلا أنها وردت في سياقات لا يمكن حملها على الاستفهام، وإنما خرجت عن هذا الأصل ؛لتفيد معاني أخرى أشار إليها المفسرون والنحويون.

ومن هذه المعاني التي أشاروا إليها (النفي)، فقد جاءت (هل) في مواضع ليست قليلة من القرآن الكريم دالة على معنى النفي، ومن هذه المواضع ما جاء في قوله تعالى: ﴿**هَل مِن خَٰلِقٍ غَيرُ ٱللَّهِ يَرزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِوَٱلأَرضِ لَآإِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ**﴾ {فاطر:٣}، فقال المنتجب الهمذاني عند توجيهه لهذه الآية:"(هل من خالق) استفهام بمعنى النفي"[٢٧].

ومما يدلّ على أن (هل) أفادت معنى النفي زيادة (من) في الكلام إذ يذهب النحويون إلى أنها لا تُزاد إلا في المنفي من الكلام، وقد زيدت مع (هل) خاصة من أدوات الاستفهام إذ لم يُحفظ مع غيرها[٢٨]. وإطلاق بعض النحويين واللغويين على (هل) أنها استفهامية في أمثال هذه المواضع هو من باب التجوز. وإلا فهي قد أفادت معنى النفي.

ومما يدخل في باب إيضاح القرآن بالقرآن ويؤيّد دلالة (هل) على النفي ما جاء في آيات أُخر مشابهة للآية التي استعملت فيها (هل) – من استعمال حرف النفي الصريح مثل (ما) في الدلالة على المعنى نفسه كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيرُهُ﴾{الأعراف:٥٩}.

ومما يترتب على إفادة (هل) لمعنى النفي في هذه الآية وأمثالها هو إفادة نفي العموم، فمن القواعد المتفق عليها أن النكرة في سياق النفي تُفيد العموم، فجاءت لفظة (خالق) النكرة في سياق النفي بـ(هل) للدلالة على نفي العموم، ويؤكّد هذا ويعضده ما جاء في تمام الآية من نفي العموم في قوله تعالى: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)، إذ لفظة (إله) النكرة جاءت في سياق النفي بـ(لا) فأفادت نفي العموم كما جاء في صدر الآية. ومثل ذلك قوله تعالى:**﴿هل عِندَكُم مِّن عِلم فَتُخرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِن أَنتُم إِلَّا تَخرُصُونَ﴾** {الأنعام:٤٩}. إذ اشتملت هذه الآية على ثلاث جمل من النفي واحدة منها بـ(هل) واثنتين منها بـ(إنْ) النافية.

ومما يدلّ على مجيئها بمعنى النفي أيضَا مجيء (إلا) في سياقها،قال ابن هشام في حديثه عن الأشياء التي تفترق بها (هل) عن الهمزة:" أنه يراد بالاستفهام بها– أي: (هل) – النفي ولذلك دخلت على الخبر بعدها (إلّا) في نحو ﴿**هَل جَزَآءُ ٱلإِحسَٰنِ إِلَّا ٱلإِحسَٰنُ**﴾ {الرحمن:٦٦}،

والأمثلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة كأمثال قوله تعالى: **﴿فَهَل عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلبَلَٰغُ ٱلمُبِينُ﴾** {النحل:٣٥}. وقوله تعالى: **﴿ وَهَل نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلكَفُورَ﴾** {سبأ: ١٧}.

وتأدية أسلوب النفي بأدوات الاستفهام أسلوب له دلالته البيانية والبلاغية، وقد أشار الدكتور فاضل السامرائي إلى الفرق بين النفي الصريح الذي يُؤدّى بأدوات النفي الصريحة والنفي الذي يُؤدّى بأداة الاستفهام (هل) وغيرها فقال:" إن النفي الصريح إنما هو إقرار من المخبر، فإذا قال: (ما جزاء الإحسان إلّا الإحسان) أو قال (ما على الرسول إلّا البلاغ) كان هذا إخبارًا من المتكلم. أما إذا قال ذلك بطريق الاستفهام، فإن المقصود إشراك المخاطب في الأمر، فهو يريد الجواب منه، فإذا قال:(هل على الرسول إلّا البلاغ) كان المخاطب مدعوًّا لأن يُجيب، وسيكون جوابه المنتظر: لا ليس على الرسول إلّا البلاغ. وإذا قال: (هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان) كان المخاطب مدعوًّا لأن يُجيب، وسيكون جوابه: لا، ما جزاء الإحسان إلّا الإحسان. فالنفي ابتداء يُفيد أنّ المتكلم يقول الأمر من نفسه، وأما في الاستفهام فإنه يَدَعُ ذلك للمخاطب ليقوله"[٢٩].

رابعًا/ (مَنْ) الاستفهامية:

ذهب النحويون واللغويون إلى أن (مَنْ) يُؤتى بها للاستفهام عن العاقل نحو قولهم: مَنْ حضر[٣٠]؟ وربّما خرجت عن هذا الأصل لتُفيد معاني أخرى، ومن هذه المعاني النفي، فيكون ظاهر النصّ الاستفهام إلّا أنَّ باطنه النفي، ولولا ذاك لما استقام المعنى. ومن النصوص القرآنية التي حُملت فيها (مَنْ) على النفي ما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **﴿قَالَ وَمَن يَقنَطُ مِن رَّحمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾** {الحجر:٥٦}. قال العكبري عند توجيه هذه الآية:" قوله تعالى: (ومن يقنط):(مَنْ)مبتدأ. و(يقنط) خبره، واللفظ استفهام، ومعناه النفي ؛ فلذلك جاءت بعده (إلا)"[٣١].

وقال الزركشي:" والاستفهامية–أي: (مَنْ) وهي التي أشربت معنى النفي ومنه: **﴿ وَمَن يَغفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾** {آل عمران:١٣٥}. و**﴿قَالَ وَمَن يَقنَطُ مِن رَّحمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾** "[٣٢].

وقال ابن هشام في تعداد وجوه (مَنْ):"وإذا قيل: (من يفعل هذا إلا زيدٌ) فهي (مَنْ)الاستفهامية أشربت معنى النفي ومنه ﴿**وَمَن يَغفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ {آل عمران:١٣٥} وإذا قيل: مَنْ يفعلْ هذا إلَّا زيدٌ فهي(مَنْ) الاستفهامية أشربت معنى النفي"[٣٣].

ولهذا يذهب النحويون إلى إعراب قوله تعالى:(الضالون) بدلًا من الضمير المستتر في قوله تعالى (يقنط)؛ لأن الكلام محمول على السّلب والنفي، وقد جاءت القراءة عند القراء السبعة بالرفع، ولو قرئ في غير القرآن بالنصب على الاستثناء لجاز[٣٤].

ومما يُؤيّد دلالة (مَنْ) على النفي مجيء (إلّا) في سياقها لنقض النفي السابق كما تجيء في سياق حروف النفي نحو (ما) و(لا) و(إنْ) و(هل) التي تكون للنفي كما مرّ آنفًا، قال السمين الحلبي في توجيه قوله تعالى:(ومن يقنط)"هذا الاستفهام معناه النفي؛ ولذلك وقع بعده الإيجاب بـ(إلا)"[٣٥].

ومما يدخل في باب إيضاح القرآن بالقرآن أنّ معنى هذه الآية ورد في آية أخرى من سورة يوسف وقد دلّت على ما دلّت عليه الآية في سورة الحِجْر، إلّا أنها جاءت منفية بحرف النفي الصريح وذلك على لسان يعقوب عليه السلام حين طلب من أولاده أن يذهبوا إلى مصر فيتحسّسوا من أمر يوسف وأخيه وأن لا ييأسوا من رحمة الله فقال تعالى: **﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلقَومُ ٱلكَٰفِرُونَ﴾**

{يوسف:٨٧}. وإبراهيم عليه السلام أراد أن ينفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى[٣٦].

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث لابد من الوقوف على بعض نتائجه التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولًا- لم يكن هناك من بُدّ أمام المفسرين والنحويين من أن يلجؤوا إلى الجانب المعنوي من الكلام لتوجيهه وتأويله سواء أكان في حالة الإثبات أم في حالة النفي؛ لما لذلك من أثر في تحديد المعنى الدقيق للكلام ومطابقته لمقتضى الحال.

ثانيًا- تعددت طرق المفسرين والنحويين في حمل الكلام على غير ظاهره، وهذا كله يصبّ في قضية توسّع دائرة التأويل، وكان من هذه الطرق حمل الكلمة على النفي المعنوي الكامن فيها، لتستقيم القاعدة النحوية.

ثالثًا- كان لسياق الكلام أثره الواضح في صرف بعض الأفعال عن دلالاتها التي أُشتهرت بها من حيث الدلالة على الإثبات والنفي.

رابعًا- تنوعت أساليب اللغة العربية في التعبير عن المعاني كالنفي والاستفهام والشرط إذ لم يقتصر التعبير عنها بالأدوات الصريحة، وإنما كان لكل من هذه المعاني أدواتها الصريحة وأساليبها الضمنية والمعنوية التي تُدرك من خلال التأمل في السياق، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على ثراء اللغة العربية وغناها.

خامسًا- إنّ العدول عن استعمال حرف ما عمّا وُضع له إلى معنى حرف آخر لابدّ أن يترتب عليه غرض بلاغي دقيق، يُدرك بالتأمل في السياق الذي وردت فيه مع مقارنته باستعمال الحرف الأصلي في السياق نفسه.

الهوامش

(1) – الخصائص: ٣٧٢/٢–٣٧٣، وينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي: ١١/١.

(2)– ينظر في معنى الآية الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٥٢/٦،ومعاني القرآن للنحاس: ٣٠٢/٢.

(3) – أساس البلاغة باب (ن ف ي): ٢٩٦/٢، وينظر لسان العرب مادة (نفى): ٣٣٦/١٥.

(4) – المعجم الوسيط: ٩٤٣/٢.

(5) – التعريفات: ٢٤٥، وينظر الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة: ٨٤.

(6) – البرهان في علوم القرآن: ٣٧٥/٢.

(7) – ينظر البرهان في علوم القرآن: ٣٧٥/٢، والإتقان في علوم القرآن: ٢٦١/٣.

(8) – في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٤٦.

(9) – النواسخ الفعلية والحرفية دراسة تحليلية مقارنة: ٢٠٩.

(10) – البحر المحيط: ١٧٠/٦، وينظر التضمين النحوي في القرآن الكريم: ١٨٨/٢.

(11) – ينظر مغني اللبيب: ٢٠٩–٢١١، ومعترك الأقران: ٦٣٧/٢.

(12) – ينظر المفردات في غريب القرآن: ٦١٨.

(13) – ينظر مشكل إعراب القرآن: ٧٢/١، وإعراب القرآن للنحاس: ٢٢/١.

(14) – ذكر هذه القراءة أبو حيّان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط ينظر: ٥١/١.

(15) – معاني القرآن: ٨/١.

(16) – أصل الجملة: (أنا غيرُ ضاربٍ زيدًا).

(17)– الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: ٩٤/١، وينظر معاني القرآن للزجاج: ٥٤/١، والكشاف: ١٢/١.

(18) – الدّر المصون: ٧٣/١.

(19) – يُنظر مغني اللبيب: ٣٣٧.

(20)– البرهان في علوم القرآن: ٢٦٣/٤، وينظر في ذلك أيضًا البحر المحيط: ٤٣٦/٧، وينظر إعراب القرآن للباقولي: ٤٧٢/١.

(21)– معاني القرآن للنحاس: ١٨٧/٦، وينظر مغني اللبيب: ٤٥٣.

(22) – مغني اللبيب: ٣٣٧.

(23) – الكليات: ٧٨٤، وينظر المعجم الوسيط: ٨٤٣/٢.

(24) – قال الزمخشري في توجيه هذه الآية:((لو) في معنى التمني. ولذلك أجيب بالفاء الذي يُجاب به التمني، كأنه قيل: ليت لنا كرّة فنتبرأ منهم)، الكشاف: ٢١٢/١، ١٦٨/١، وينظر في ذلك الدر المصون: ١٤/٢.

(25) – الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: ٤٦٦/٥.

(26) – ينظر مغني اللبيب: ٤٥٩.

(27) – الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: ٣١٤/٥.

(28)– ينظر الجنى الداني في حروف المعاني: ٣١٧.

(29) – معاني النحو: ٢٠٩/٤.

(30) – ينظر مغني اللبيب: ٤٣١.

(31) – التبيان في إعراب القرآن: ٧٨٥/٢، وينظر الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: ٨٣/٤.

(32) – البرهان في علوم القرآن: ٤١١/٤، وينظر مغني اللبيب: ٥١٨.

مغني اللبيب: ٥١٨. –(33)

(34) – ينظر شرح شذور الذهب: ٣٤٣.

(35) – الدر المصون في إعراب الكتاب المكنون: ١٦٦/٧.

(36) – ينظر في تفسير الآية تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: ٣٠٦/٧.

Moral exile in the Holy Quran

Dr. Falah Ibrahim Nassif Fahdawi
Hamad bin Khalifa University / College of Islamic Studies
drfalahibrahim@gmail.com

Abstract:

The Arabic Language linguists have various methods in interpreting and orientating the Arab Texts from the grammatical perspective. The research focuses on one of these methods. It is the negative potential meaning interpretation and orientation for the texts that are their apparent meaning seems to be affirmative.

I preferred that my study to be connected with the Holy Quran Texts hoping to enrich the field of the Quranic Studies and to be more specific in my study problem. After the profound study for all what is to be in relation to my study problem, I found that it is better for my study to be in an introduction and the term definition, followed by two chapters: Chapter one addresses the negative meaningful in verbs, whereas chapter two addresses the words that carry the negative meaning, although its apparent meaning is different.